

الرسالة الخاتمة للناس كافة أم للعرب خاصة؟



راكان آل عايض

1447 هـ | 2026 م

الرسالة الخاتمة: للناس كافة أم للعرب خاصة؟



بعد أن نشرْتُ كتابي "مقالة السعي المقدس"، والذي تطرقت فيه إلى قضايا عديدة، كان من بينها محاولة بعض المنحرفين عقدياً تصوير الإسلام كما لو أنه دين جاء للعرب وحدهم دون غيرهم، وأن العرب هم "شعب الله المختار"، ومن عداهم ضالون ملعونون منبوذون محقرون، مصيرهم النار يخلدون فيها...

وردني سؤال حول معنى قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (إبراهيم: ٤)؛

هل في ذلك إشارة إلى ما يدعيه بعض الزنادقة من أن الرسالة الخاتمة هي لقوم النبي فقط في حياته، وبعد وفاته هي للعرب وحدهم دون بقية الناس؟ ذلك لأنه إذا كان القرآن قد نزل باللسان العربي المبين، والله لا يرسل الرسل إلا بالسنة أقوامهم، فمعنى ذلك أن الرسول الخاتم قد أرسل لقومه فقط، وهم العرب!

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

أولاً: انتقاء آية وبترها من مجموع الآيات الواردة في الموضوع الواحد هو تعضية للقرآن؛ أي تجزئة وتشويه له. وهذه آية واحدة

ضمن الكثير من الآيات في موضوعها، وكلها تؤكد عالمية الرسالة وإنسانيتها.

ولمن لم يقرأ القرآن من قبل؛ نحيله -قبل التفصيل في الإجابة- ليتأمل كلام الله في هذه الآيات الكريمات:

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي ۚ وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الأعراف: ١٥٨)، «قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفناؤه وبعثه، فصدّقوا بالله وأقرّوا بوحدانيته، وصدّقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وما أنزل إليه من ربه وما أنزل على النبيين من قبله، واتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم». [التفسير الميسر].

- {..وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (النساء: ٧٩)، «وقد بعثناك -أيها النبي- لجميع الناس رسولاً من الله تبلغهم

رسالة ربك، وكفى بالله شاهداً على صدقك فيما تبليغه عنه، بما أتاك من أدلة وبراهين». [المختصر].

- {يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء: ١٧٠)، «فهو رسول إلى العالمين. إلى الناس كافة - بعدما غيرت الرسائل كلها خاصة بقوم كل رسول - فلم يكن بد من تبليغ عام في ختام الرسائل، يبلغ إلى الناس كافة: {ثلاثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}.

ولو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله. فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٩)، «فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها، ويحصل منها محتواه، فقد قامت عليه الحجة به،

وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بعد البلاغ». (في قتال

القرآن).

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَلِمَ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} (يونس: ١٠٨)، «فهو الإعلان الأخير للناس، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه. فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم. {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها}.. وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية». (في قتال

القرآن).

- {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} (يوسف: ١٠٤)، «إن الذي أرسلت به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون». [المير].

- {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧)، «ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما

يهتدي إلا أولئك المتهيين المستعدون. وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين.

إن المنهج الذي جاء مع محمد -صلى الله عليه وسلم- منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملاساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم. وكفل للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير». (في ظلال القرآن).

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الحج: ٤٩)، «قل - أيها الرسول -: يا أيها الناس ما أنا إلا منذر لكم مبلّغ عن الله رسالته». [الميسر].

- {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان: ١)، «أي: الله الذي نزل القرآن فارقاً بين الحق والباطل. على عبده: أي محمد صلى الله عليه وسلم. ليكون للعالمين نذيراً: أي ليكون محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين من الإنس والجن أي مخوفاً لهم من عقاب الله وعذابه إن كفروا به ولم يعبدوه ويوحده». [الميسر التفسيري].

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ: ٢٨)، «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى قَوْمِكَ خَاصَّةً، وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا، مُبَشِّرًا مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالْجَنَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَمُنذِرًا مَنْ عَصَاهُ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.. كَافَّةً لِّلنَّاسِ - إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا». [الميسر التفسيري].

- {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ. عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} (الفتح: ٢٨). إنه دين العدل والحرية والرحمة والمساواة والإخاء، ونصرة المستضعفين، وردع

الظالمين، والإحسان إلى عموم المخلوقات؛ فهو دين الحق بلا ريب، والله مظهره على الدين كله بالحجة والبرهان، وكفى به شهيداً.

فكيف يكون هذا القرآن والمرسل به (كافة للناس) وهو مرسل لقوم محددين؟

إذاً، فالمسألة تحتاج إلى توضيح للبس الذي حصل؛ والجواب هو أنه من البديهي أن يخاطب الرسول أول من يخاطب قومه الذين حول، وكيف يخاطبهم بغير لسانهم؟! لذا اقتضت الحاجة ذلك، ولكن هل معناه أن الخطاب -أو الدعوة- هكذا انحصر بهم؟! لا، وإنما ابتداء بهم كما في قوله تعالى: (لَتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)، وقوله {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ؛ (الشعرا: ٢١٣-٢١٦) -لا تمييزاً لهم عن غيرهم- وإنما هي ضرورة الواقع كما ذكرنا.

ويكون حمل الرسالة من بعدها واجباً على من صدق منهم وآمن وعمل بما أرسل الله به رسوله الخاتم.

ثانياً: كون الله اختار محمد بن عبد الله ليكون الرسول الخاتم هو أمر غير خاضع للاعتراض أو السؤال: و{..اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..} {الأنعام: ١٢٤}، فذلك تقديره سبحانه، وهو الذي: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} {الأنبياء: ٢٣}.

وكذا الأمر بالنسبة للسان الذي اختاره ليكمل به دينه في الكتاب الخاتم. فهذا اختيار رباني، ليس هو محل اعتراض أو سؤال.

كما أنه يجب -وبتشديد هنا- ألا يكون ذلك محل تفاخر من قبل العرب أو ادعاء تفوق أو تفضيل عنصري؛ حاشا وكلا، ذلك لأن الله هو من قدر اختلاف الألسن والألوان، وجعل اختلافها آية من آياته: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} {الروم: ٢٢}، وهو الذي خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {الحجرات: ١٣}؛

فإن تعارفوا تعايشوا، ومن ثم تعاونوا على البر والتقوى، وكان الأكرم عند الله -دائماً وأبدا- هو الأتقى فقط؛ عربي أو أعجمي، أبيض أو أسود، لا فرق.

وعندما قال عز من قائل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...} فإن المقصود بهم هم من آمن، وكل من تبعهم بعد ذلك من الناس؛ علي أن تنطبق عليهم هذه الشروط، وهي في نفس الآية: {..تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (آل عمران: ١١٠).

ثالثاً: قلنا إنه ليس في هذا الاختيار ما يجعل من العرب مميزين عن غيرهم أو أنهم فوق بقية الناس؛ بل على العكس، فقد كانوا هم أكثر من حارب هذه الرسالة في بدايتها وحاملها أيضاً (ص)، ومع ذلك فكون القرآن نزل باللسان العربي فليس تمييزاً لهم، بل مسؤولية عليهم، وابتلاءً وعبئاً يُسألون عنه يوم القيامة، لا موضوع تفاخر وتعالٍ على بقية الناس.

وابعاً: ليس كل من تحدث العربية هو عربي بالمعنى العرقي؛ ولذا فاللسان العربي ليس حكراً على العرب وحدهم، ويمكن تعلمه واكتسابه. وكثيرون يتقنون العربية أكثر ممن اكتسبها منذ الصغر، وهي في نهاية المطاف وسيلة مخاطبة لا غاية في ذاتها؛ والقيمة هي في الرسالة لا في اللغة التي تحملها.

ولذا فإن ترجمة القرآن إلى لغات شتى كفيلة بنقل جوهر الرسالة وأحكامها وكل تفاصيلها دون أي نقص إلى كل الناس؛ بمعنى أن المسلم غير الناطق بالعربية يستطيع فهم كل شيء عن الإسلام دون تعلم العربية اللهم إلا في حفظ القرآن تلاوة (كون تلاوة القرآن أمراً تعبدياً)، وهذه لا تحتاج إلى تعلم، وإنما بالتكرار والمحاكاة حتى يتم الحفظ.

ولعل هذا من أظهر أسباب اختيار لسان محدد ليحمل الرسالة الخاتمة؛ فلو لم يكن محددًا لاستحال حفظ النص الإلهي الخاتم، وكان عرضة للتحريف والتلاعب به والضياع بين الألسن. فربما كان اختيار لسان محدد نزل به مبرره هو تحقق إمكانية حفظ النسخة الأصلية للنص الإلهي، التي يمكن بعد ذلك الترجمة منها بما لا يحدث أي نقص في تبليغ تعاليم الرسالة وأحكامها للناس كافة.

وفي قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف: ٢)، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ

يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا { طه: ١١٣ }، {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الزمر: ٢٨)، {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (فصلت: ٣)، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} (الشورى: ٧)،

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف: ٣)، {وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ} (الأحقاف: ١٢)،

{وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} (النحل: ١٠٣)، {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} (الشعراء: ١٩٥)،

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ} (فصلت: ٤٤)،
 فتفهم كلها إذا عرفنا أن من معاني وصف "عربي" الإبانة
 والفصاحة والوضوح؛ فكان القرآن وتعاليمه وأحكامه كذلك، أي
 واضحة بيّنة فصيحة سهلة الفهم والتلقي.

وقيل: المقصود هو الخلو من النقص والعيب؛ أي المثالي،
والقرآن حسب هذا القول مثالي بالطبع. فكلها معانٍ تتكامل فيما
بينها لتأكيد جمالية وكمال وعظمة هذا النص الخاتم الخالد.



إن ما يشاهده المرء من تعالٍ وتفاجرٍ وتعنصرٍ وفوقيةٍ في خطاب
الجهلة من العرب، الذين نفّروا خلق الله من دينه وكتابه الخاتم؛
ليبعث على التقزز، ويفور منه الدم غضباً على ما أفسدوا وحرّفوا
في دين الله.

لقد تكلمنا في الصفحات السابقة، وقلنا إن اختيار الله لمحمد
بن عبد الله ليكون رسوله وخاتم النبيين، واختياره للسان العربي
المبين لحمل كلامه سبحانه وتعالى، ليس مدعاةً تفاجرٍ وتعالٍ
للعرب؛ بل هي **أولاً**: إرادته تبارك وتعالى التي لا تُساءل ولا تُرد،
وهي **ثانياً**: مسؤولية ثقيلة يتحملها كل الناطقين بالعربية؛ ليوصلوا
الرسالة الخاتمة إلى الناس كافة بمختلف اللغات.

فإذاً، ينبغي أن نغيّر التصور المشوّه الذي يتفشى لدى كثير من
العرب، والقائل بأن اختيار الله للعربية لساناً للوحي تشریف لهم؛
حاشا وكلا، وإنما هو تكليف صعب، ومسؤولية عظيمة، وحمل

ثقيل، وعليه فإن الحساب لمن أساء في استقبال وفهم ذلك عسير.

وإن كثيراً من هؤلاء العنصريين من العرب، الذين لا يبهون لدين الله أصلاً، ولا بتعاليمه وتطبيقه ونشره - اللهم إلا بالتفاخر بأن الله تعالى قد يسّر [١] كتابه الخاتم على لسان رسوله الكريم بالعربية، معتقدين ذلك تمييزاً إلهياً عنصرياً لهم عن باقي البشر غيرهم، بحيث يكونون هم الأعلى والأقرب منه سبحانه، والباقون أدنى منهم وأبعد منه، سبحانه وتعالى عما يصفون ويعتقدون... إنني أكاد أجزم أن هؤلاء العنصريين ما كانوا ليستقبلوا الرسالة الخاتمة ولا الرسول حاملها، لو كان قد بُعث ﷺ في بلاد فارس أو روما أو الصين أو أفريقيا أو غيرها من البلدان، وبلسان غير اللسان العربي المبين.

إن ما يحركهم ويتحكم بهم هو عنصريتهم وعصبيتهم القومية لا غير، ولا هم معنيون بالقرآن من حيث مضمونه، ومن حيث هو

[١]. {فَأَنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} (مريم:

٩٧).

{فَأَنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الدخان: ٥٨).

رسالة الله الخاتمة للناس كافة، بل من حيث لسانه فقط،
متصورين أن كونه نزل بلسان عربي، فذلك حتماً رفع للعرب فوق
بقية الخلق، وإن كانوا كفرة مشركين منافقين محاربين لله
والرسول!!!!

وينسى هؤلاء الجهال أن أول حرب خاضها الرسول كانت مع
عرب، وأول من حارب دعوة الرسول كانوا عرباً، وأول من حاول،
وما يزال، تحريف هذه الرسالة هم عرب، ولولا تعهد الله بحفظ
كتابه لما سلم من دسهم وشرهم وعفنهم.

لتكن كلمتنا واضحة؛ هذه الرسالة أنزلها الله على رسوله محمد
(ص) ليبلغها للعالمين، بدءاً بمن يُبعث فيهم، وانتهاءً بالناس
أجمعين، وإن على عاتق كل مسلم بعد وفاته (ص) الدعوة إلى
كتاب الله بعد فهمه والعمل بما احتواه.

وإن كان العرب قد اعتبروا في نزول القرآن فضلاً من الله عليهم،
فكان الجدير بهم وعي أن ذلك معناه المسؤولية بتبليغ الرسالة،
والعمل بها وفهمها، ولو عملوا بها لما تطرق إلى خواطرهم اعتقاد
التفوق على غيرهم لكونهم ناطقين بالعربية، وإنما التفوق
الحقيقي هو في البر والتقوى (وتعانوا على البر والتقوى)؛ لذلك

كان الأكرم عند الله عز وجل هو الأتقى، بغض النظر عن لغته وجنسه ولونه.

إن فضل الله وتفضيله ليس هو التمييز العنصري البشري، الذي يجعل "المُختار" فوق أي مساءلة، ومعفياً من أي مسؤولية، ومجرداً من كل تكليف؛ أي هو هكذا مميز عن غيره لهوى ومزاج!!!! حاشا وكلا، وتعالى الله عن ذلك.

ولذا فإننا عندما نقرأ مثلاً قوله تعالى عن بني إسرائيل: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة: ٤٧)، فإننا لا نجترئ الآية من سياقها الذي وردت فيه، ولا تستقيم دونه، وفيه الصورة الكاملة لحقيقة معنى هذا التفضيل، وأنه مسؤولية وتكليف عظيمان، لا تفضيلاً بالمعنى العنصري كما جاء عنهم في قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ"، فرد عليهم الله سبحانه في نفس الآية: {..قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (المائدة: ١٨)! وتأمل قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِْيَايَ فَارْهَبُون * وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِْيَايَ فَاتَّقُون * وَلَا تَلْسِنُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * ﴿٤٨﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } (البقرة: ٤٠-٤٨). فهل هذا هو ذات المعنى الذي لدى البشر للتفضيل؟ كلا وألف كلا.

ومثل هذا ينطبق على قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } (الجمعة: ٢-٤)، فإن في النص **أولاً**: إخباراً بحقيقة، و**ثانياً**: تفضلاً عليهم بأن حملهم مسؤولية النشر الأول

لرسالة الخاتمة، ونشرها صافية نقية كما نزلت على رسوله الخاتم، دون زيادة أو نقصان، وخالية من التحريفات والإضافات البشرية.

وثالثاً: إن هذا التذكير لهم يتضمن إشارة إلى ما كانوا فيه من (ضلالٍ مبين)، وبالتالي تحذيراً من الانحراف عما حدده الله في كتابه من شرع وتعاليم، والتي لا تستقيم بحال مع ما نراه من ادعاء تفوق العرب وعلوهم على باقي البشر؛ وهذا، كما بيّنا، افتراء على الله وكذب.

فالله عندما يقول: تذكروا فضله عليكم، أو أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، فإنه لا يعني: أي تنمّروا على غيركم، وقولوا إنكم فوقهم، وأحسن منهم، فلا تخضعون لمساءلة، ولا تكلفون بشيء، ولا يُطلب منكم سعي ولا عمل ولا تقوى.. إلخ!!!

إن الله تبارك وتعالى عندما يذكر أحداً أو مجموعة من خلقه بفضله عليهم، فإن معناه: أن قوموا بما هو واجب عليكم -في المقابل- من عمل برسالته، ونشر لها، وتخلّق بأخلاقها، وتطبيق لتعاليمها، وتواضع مع بقية الناس؛ لأنكم كلكم من "نفس واحدة"، والأكرم عند الله جل جلاله هو الأتقى منكم؛ ممن آمن

وعمل صالحاً وسابق إلى الخيرات. يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ..} (النساء: ١)، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣).

ثم هنالك شيء أخير بوذي أن أضيفه قبل أن أختتم هذا الحديث؛ وهو: لنفترض أن الرسالة الخاتمة هي للعرب وحدهم كما يزعم الجهلة المفترون؛ ولنفتح كتاب الله ونرى ماذا فيه؟ فهل نجد قيمة أخلاقية أو حكماً شرعياً أو تكاليف شعائرية لا تنطبق عند تطبيقها سوى على العرب؟! بحيث لا يمكن لغيرهم القيام بها؟! محال.

ومن قرأ كتاب الله تعالى يعرف أنه كتاب للبشرية جمعاء، لا بل للإنس والجن على حد سواء: {قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} (الجن: ١-٢)؛ وأنه لا تمييز فيه بين عربي وغير عربي إلا بالتقوى، وأن الله وضع فيه الأسس الأخلاقية والقيمية للإنسانية جمعاء، بحيث إنه لا يمكن لمجتمع إنساني في العالم

أن يعيش دونها؛ ذلك لأن كل تعاليم هذا الدين إنسانية، بمعنى أنها تصلح لكل الناس، وسهلة الاستيعاب والتلقي، وليست كما في كتب البشر التي يستطيع كل ناظر فيها -ومن أول مرة- أن يقول بمحدودية ما فيها زماناً ومكاناً. بينما كانت رسالة الله متجاوزة لكل الأزمنة، وكل الأمكنة، وصالحة لكل عصر ومصر. فهل هذا يتفق وقولهم بأنها رسالة للعرب وحدهم؟!



**هذا، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين،
والحمد لله رب العالمين.**